الشيخ سيدي المختار ولد الشيخ سيديَّ.. ترجمة عامة

الأستاذ الأديب/ عبد الله ولد سيدي عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وسلم

ولد الشيخ سيدي المختار ولد الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيديَّ (أبَّاهْ) يوم الجمعة عيدَ عاشوراء سنة 1279هـ عند تامْرِزْكيتْ. وهي بئر لآل الشيخ سيديَّ تقع شمال بوتلميت معروفة في شعر والديه بميمونة السُّعْدَى[أ]، وذلك بعد مولد أخيه الأكبر الشيخ سيديَّ بابَ بزهاء سنة.

وما يدريك بمن كانت تنشئته على يد جَدٍّ مثل الشيخ سيديَّ الكبير وأبٍ مثل الشيخ سيدي محمد وفي محيط كمحيطهما؟ فكان كما قال حسان رضي الله عنه: (كامل)

إنَّ ابـن جفْـنَـةَ مِن بقية مَعشرٍ لم يَغْذُهُـمْ آباؤُهـمْ باللُّـومِ

لقد بدأ الشيخ سيدي المختار دراسته مبكرا في محظرة أهله وعلى كبار أساتذتها. ومن بين من درس عليهم: الشيخ أحمد ولد المختار ولد ازوينْ والشيخ أحمدُّو ولد سليمان والشيخ محمدُّو ولد حنبل والدَّوَّ ولد عيمور وامُّودْ ولد محمد المصطفى وغيرهم، فاستكمل الدراسة المحظرية فيها بإتقان وهو لا يزال حديث السن. وأخذ سند القادرية عن الشيخ أحمد ولد المختار ولد ازوينْ فكان الشيخ سيدي المختار معروفا بسرعة الفهم وحضور البديهة والضبط وقوة الذاكرة وهي أمور قل أن تجتمع في شخص واحد.

[أ] يقول الشيخ سيديَّ الكبير: أمعالمُ الميمونة السُّـــعـدى ذِهِ أم انتَ ناظرُها بمُقلة أمْـــــرَهِ
ويقول الشيخ سيدي محمد: لعمركَ ما ترتابُ ميمونة السُّعدى بأنا تركنا السعي في أمرها عمدا

ومما زاد في تكوين الشيخ سيدِي المختار العلمي خزانة الكتب التي وجدها مهيأة أمامه والتي أعدها واستجلبها من كل أرض واستنسخها من كل أصل والدُهم الشيخ سيديَّ الكبير الذي يقول فيه العلامة باب ولد أحمد بَيْبَ: (كامل)

وجئتَ بكُشْبٍ يُعْجِزُ العِيسَ حَمْلُها وعندكَ عِلْمٌ لا تحيط به الكُتْبُ

وكان للشيخ سيدِي المختار اهتمام بالكتب وتنظيمها ومطالعتها واقتناء كل ما جد منها، فكانت مكتبته من أغنى المكتبات، يطالعها ويطالع فيها الناس ويستعيرون منها الكتب.. وربما وهب النسخ الزائدة لينتفع بها الناس وتُتداول في المحيط المعرفي.

ويكفي ابنَي الشيخ سيدِي محمد فضلاً أنهما ـ على حداثة سنهما إبان وفاة والدهما ـ لم يتنازلا عن قيد أُنملة مما كان عليه سلفهما فشكلا حلقة ربط لا انفصام فيها مع السلف.. وهو أمر بالغ الصعوبة والأهمية معا حتى أن الناس لم تشعر بفقد أي شيء مما كان عليه العملاقان: الشيخ سيديّ الكبير والشيخ سيدِي محمد. يقول في ذلك المعنى العلامة محمد المصطفى ولد الطالب في قصيدته التي مطلعها: (طويل)

مغانٍ بذات الضال أقوين والسِّدْرِ بمُنهَمِر المُـزن السَّحوحِ وبالقَطْرِ
تَلوح ولَأْيًا مـا تـلـوح كأنها بقايا زَبور لا ئحـات على السَّطْرِ

إلى أن يقول:

إلى الآمرينَ الزاجرينَ عن الخَـنا إلى الراكعينَ الساجدينَ على طُهْرِ
إلى أسرة اللاَّجي وعِتْرَتِهِ التي هي العُروةُ الوُثقى إلى آخر العصرِ
بنو الشيخِ حقًّا والشيوخُ سواهمُ سرابٌ بقاعِ الأرضِ يَبدو لِمُغْتَرِّ

فما منـهـــمُ إلا أغَـــــرُّ سَمَيْذَعٌ كريمُ المَساعي مِن أساتذةٍ غُرِّ
صَبورٌ على عَـــضِّ الزمان ومَضّهِ وللصَّبْرِ شِبْهٌ واشتقاقٌ منَ الصِّبْرِ
رَوِيَتُهُ في الحادث الإدِّ إنْ دَهَى رَوِيَةُ عَمْرٍو ذي الدَّهاءِ أوالْقَسْرِي
وليس بِنَظَّارٍ إلى جانبِ الغِنَى إذا كانت العَلياءُ في جانبِ الفَقْرِ
فَزُرهمْ أسيرًا أو كسيرًا فَكلُّهُمْ على صِغَرٍ يدعونه جابرَ الكَسْرِ
بَلاغتُهُمْ تُزْري بِسَحْبَانِ وائلٍ إذا نَطقوا أو أرْعَفُوا قلمًا مَبْري
وقُسًّا فمَنْ قاس الجميعَ بلاغةً بقُسٍّ وسَحْبانٍ فَذا القيسَ لا يَدْري

كما عبر عن ذلك العلامة محمدٌ النَّانَّ بن المُعَلَّى بطريقته حيث يقول في قصيدته التي يمدح بها الشيخ سيدي باب. ومطلعها: (وافر)

أَرِقْ مِنْ عينكَ الدَّمعَ الهَتُونَا بما فتنوكَ إذ شحَطوا فُتونا

إلى أن يقول:

بهذا الشيخ فازدهرْ ازدهارا فهُو سماءُ مجدِ الأكْرمينا
وأهلَ البيت ذاكَ انسُبْ إليهمْ فإنهمُ كِـــــرامٌ طيِّبـــونا
أشِد بحلاهـــمُ في كل نادٍ وأكرمْ بالأخيـــنَ وبالأبينا
وأحسنَ ما يقال اتبعْهُ فيهمْ وذرني واقتفاءَ الكاشحينا
فكلهـــمُ متى تبدأْ وتختمْ بصالحةٍ تجـدهُ بها قَمينا
تجدْ يُمْنـــى سواه لهُ يسارا ويُسراهُ لـــه جُعلتْ يمينا

والحديث عن شخصية الشيخ سيدي المختار (أباه) يتطلب الكثير من المجهود والوقت لتعدد جوانبها. فهو شخصية دينية فائقة وشخصية علمية متفوقة وسياسي محنك ومصلح موفق ومنفق متفان وحليم مُغْضٍ وجواد متلف وكعبة حاجات يؤمها القاصي والداني وثري مُبَجَّل إلى غير ذلك من الخصال

التي لا يتأتى حصرها. وسنوجز منها ما سمح به الوقت والجهد.

أولا: الشيخ سيدي المختار.. شخصية دينية وعلمية: كما أسلفنا فقد درس الشيخ سيدي المختار في محظرتهم جميع العلوم والفنون التي كانت تدرس آنذاك وأتقنها إتقانا فائقا مع فادح التأهيل لذلك، كما أخذ طريقة القادرية التي كانت عند أسلافه، فكان بذلك شيخ تربية من كبار أرباب السلوك وعالما ربانيا ومعلما تستنير الناس بعلومه وآرائه وسلوكه وآدابه. وقد نفع الله بذلك خلقا كثيرا.

وكانت في حضرته محظرة علمية يقيم فيها الكثير من العلماء والأدباء والقراء والفضلاء يلتفون حوله كمجلس علم وفتوى وتعليم وإرشاد، مثل العلامة الشيخ عبد الله بن داداه ومحمد محفوظ بن ألفق المصطفى والمصطفى ولد الدوله ومحمد المصطفى ولد أبنو ومحمد المصطفى ولد الطالب وأحمد ولد المختار فال وسيدي ولد عبد الله وغيرهم. وكان يوفر للوافدين من خارج الحضرة الظروف الملائمة للتعلم وينفق عليهم من خالص ماله، كما يوفر المراجع المطلوبة في كل فن.

وله آثار علمية نذكر منها على سبيل المثال: تفسيرا رائعا لسورة الفاتحة ورسائل هامة وتقييدات تشمل كثيرا من الفوائد. وكان أغلب من تصدر على يده في الطريقة من الزنوج الأفارقة المقيمين خارج البلاد، وذلك نظرا لعدم قبوله للمريدين المحليين الذين كان يوجههم إلى أخيه الأكبر الشيخ سيدي باب، فكون الشيخ سيدي المختار جيلا من علماء ومربي الزنوج أسهم إسهاما كبيرا من خلاله في نشر العلم والدين في هذه القارة، ونذكر من بينهم:

1- محمد با فودَ وهو عالم كبير ومؤلف وشاعر، يقول في إحدى رسائله

الشعرية الموجهة إلى شيخه: (بسيط)

وإن همُ سألوا عـــني فقل لهمُ غادرتُه بـــيـــنَ أَنَّـاتٍ ورَنَّاتِ
تَميلُ نحوكمُ شوقًا جوارحُه كما تُميل الصَّبا أغصانَ بَانَاتِ

وسنذكر نموذجا من شعره في باب المدائح بحول اللّٰه. من تآليفه: نصيحة الإخوان. وقد حاول فيه تصحيح وتقويم بعض العادات الزنجية على أساس الشريعة، وحظي هذا الكتاب بترحيب خاص من قبل علمائنا الموجودين آنذك، فسلموه وقرظوه، مثل محمد عالي ولد عدود ومحمد ولد أبي مدين الذي يقول في تقريظه: (طويل)

كتابٌ به مُرْصاصُ عن كل بلدة سوى الحـــرمين الآمنين تُقَدَّمُ

والدنبجه ولد معاويه الذي يقول كذلك في تقريظه: (طويل)

فرحنا بـها لما رأيـــنا نُقولَها تقَبَّـلها مِنَّـا الجهابذةُ الشُّمُّ

ومحمد ولد محمذ فال وغيرهم.

2. محمد الأمين اسوانا من كازاماص.

3. با كُتب مرصاص

4. محمدٌ كَبَ. وكلهم علماء مربون ودعاة لنشر الدين.

للشيخ سيدي المختار كذلك كرامات وخوارق لا تعد ولا تحصى، إلا أننا سنذكر منها نماذج ثبتت بالتواتر وحسب درجة المصادر, لقد كان مجابَ الدعوة وكان يُروى أنه أكثر الأسرة خوارق.

من ذلك أن شخصين من مقربيه جاءا يطلبان بقرة حلوبا بعين ذاتها فعرض عليهما أن يأخذها أحدهما ويعوض هو للآخر بقرة أخرى، فرفض كل

منهما التنازل فسأل الله الأصلح فيها فوجدوها ميتة.

ومن خوارقه أنه ترك متاعه ذات ليلة عند إحدى بناته وخرج لاستقبال بعض الزوار وأمرها أن لا تبرح المكان حتى يرجع، فاستطالت الفترة وخرجت فإذا ببقرة تطاردها فرجعت، ثم خرجت ثانية فطاردتها البقرة حتى أسقطتها في أغصان من القتاد يصعب التخلص منها، ثم لدغتها عقرب فجاء مسارعا وذكرها بما أمرها به وحمد الله على أن لم يتجاوز الضرر هذا الحد.

نذكر كذلك قضية مترجم زنجي اسمه هارونا كان يترجم بينه وبين الحاكم الفرنسي فأخبره أحد الحاضرين أن المترجم حرف كلامه، فقال: بلغ ذلك مني مبلغا لا يمر عادة هكذا، فسقط المترجم مغشيا عليه ورفع إلى بودور حيث توفي في نفس المرض.

نهى الشيخ سيدي المختار كذلك أحد رعاة إبله عن ركوب جمل معين فركبه خلسة، فلم يستطع النزول عنه بأية صورة حتى دخل الحي وشهد عليه الجميع.

رأى الشيخ سيدي المختار قبل موته في المنام أن إبراهيم عليه السلام توفي هنا ودفن قرب باب في المكان الذي دفن هو فيه لا حقا، فلما قص الرؤيا على محمد عالي ولد عدود دعا له الله بطول العمر وقال:"إن كان إبراهيم عليه السلام في هذه الأرض فهو (أباه)". و قد سمع أباه قبلُ في نفس البلد هاتفا يقول:"بلدة طيبة ورب غفور" وذلك حينما كانوا يدفنون أحد أفراد الأسرة: فاطمه امْباركَه بنت عبد الفتاح (الناهَ).

ثانيا: الشيخ سيدي المختار.. شخصية سياسية: تتجلى حنكة الشيخ سيدي المختار السياسية وحكمته في المحيط الضيق كما تتجلى في المحيط

العام. وسنذكر أوجها من ذلك:

1 ـ **سياسته الأسرية:** كان الشيخ سيدي المختار يقول إنه أخذ على نفسه العهد أن لا يقع خلاف في أهله مدة حياته وأن لا يختل شيء في منهجهم مع الناس. وكان وفيا لهذا العهد حيث ظل يقدر أخاه الأكبر ويجله رغم ضئالة فارق السن بينهما، فكان لا يخاطبه إلا بـ "الشيخ " ولا يرفع فيه وجها ولا يعقب له أمرا وكان باب تارة يمازحه فيضحك ولا يرد عليه بالمثل. وقد وافق أبَّاهْ على جميع المواقف السياسية والاجتماعية والدينية التي أخذها باب وكان لا يقبل التلاميذ المحليين مدة حياة باب كما كانت سياسته بعد وفاة أخيه الحفاظ على تماسك الأسرة والتنازل عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى خلافها وقد ظل محافظا على منهجها مع الناس ودورها الاجتماعي، من إصلاح وإنفاق وتوطيد علاقات.

2 ـ **سياسته القبلية:** لقد تولى الشيخ سيدي المختار زعامة قبيلته فترة طويلة وحقق لها الكثير من المكاسب ورد عنها الكثير من المظالم ورفع من شأنها في شتى المجالات، نذكر من ذلك على سبيل المثال:

ـ أنه كثيرا ما دفع عنها اللوازم الضريبية من خلص ماله. وذلك أن الإدارة الفرنسية في ذلك الوقت ربما منحت أجلا لا يكفي للاتصال بشتى بطون القبيلة الذين يتفرقون في بعض فصول السنة للانتجاع، فقد توصل مرة برسالة من الحاكم الفرنسي تمنح أولاد أبيري أجلا لا يتجاوز ثلاث ليال لدفع 140 ركوبا و50 مزادة و 8 حداة، فدفع كل ذلك ولم يطلب عنه أي تعويض. وذلك ما عبر عنه نزيلُ في قصيدته التي سنذكرها لا حقا.

ـ تدخله في مشاكلها مع الإدارة الفرنسية. كان الشيخ سيدي المختار كلما سجن الفرنسيون أفرادا من القبيلة تدخل لتسوية مشكلتهم ودفع عنهم

الغرامات المترتبة. وقد استعصت عليه مشكلة معينة مع الإدارة لاتسامها بطابع جزائي، فخير في حلها بين فرس معروفة (اغويصبتهم) وبين مبلغ نقدي يقدر الآن بحوالي 30 مليون أوقية، فرجح الخيار الأخير فحلت القضية... إلخ

3 ـ **سياسته مع الإدارة الفرنسية:** كان الشيخ سيدي المختار أول من التقى بالفرنسيين من الأسرة وناقش معهم في السينغال وهو الذي شرح لباب أخبارهم وهيأ الاتصال بينه وبينهم, وبعد الاتفاق جال معهم في البلاد حوالي سنة للحد من إضرارهم بالمسلمين. وقد استبطاه باب وتلقاه في ركب احتفاء برجوعه. وكانوا يحيطونه بمكانة خاصة ويقبلون وساطته في شتى الأمور العامة. وكانت صورته الموجودة في الأرشيف الفرنسي مكتوبا عليها زعيم القبيلة وابنه.

طُلب منه مرة الحضور لاجتماع عام مع وزير المستعمرات، فعزم على أن يطرح عليهم قضيتين: إحداهما عزل حاكم دائرة اترارزه (أرشنار). والثانية الإذن للشيخ أحمد بمب في العودة إلى أرضه, فلما استشار باب في ذلك أمره أن يترك الأولى للأمير أحمد سالم ولد إبراهيم السالم وأن يطرح عليهم القضية الثانية فامتثل فنجحت المهمتان,

4 ـ **سياسته مع الآخرين:** كان الشيخ سيدي المختار ذا علاقة واسعة مع جميع الناس، قوامها الثقة المتبادلة وحسن المعاملة, ولم تطرح عليه أي جهة مشكلا أو يحصل به له علم إلا حاول حله. من ذلك أن رئيس إحدى القبائل المجاورة قد ألزمه الفرنسيون 60 رأسا من الإبل في أجل يومين. وكانت آبال قبيلته بعيدة في ذلك الوقت فأخبر أباه فأعطاه 60 رأسا ومن يبلغها للإدارة ولم يقبل منه لاحقا تعويضها.

ومنه أن الأمير أحمد سالم ولد إبراهيم السالم جاءهم بسيدي ولد سيدي ليسلم عليهم إبان رجوعه من مهجره فقال له أباه ستعينك الأسرة بألفين وهو مبلغ خيالي آنذاك، فحلف الأمير أن ليس بإمكان أي رجل في ذلك الوقت التفوه بها فأحرى فعلها سوى أباه، والشيخ أحمد بمب إلخ.

ومن ذلك قضيته مع العلامة التواجيوي أفاه و لد الشيخ المهدي الذي جاء به المستعمر ليسجن في أبي تلميت، فطلب منهم أباه أن يتركوه في إقامة جبرية معه وبضمان منه، فقبلوا ذلك حيث مكث معه زمنًا طويلا في حسن ضيافة وإكرام نوه بهما أفاه فيما بعد.

ثالثا: الشيخ سيدي المختار.. مصلح اجتماعي: لقد سخَّر الشيخ سيدي المختار الكثير من المجهود والوقت للإصلاح بين الناس، فكان لا يعلم بأي خلل بين جماعة أو قبيلة أو مجموعات أو قبائل إلا بادر لإصلاحه مهما كلفه ذلك من مال ومشقة. والأمثلة على ذلك كثيرة، إلا أن الوقت وخوف الإثارة يحولان دون نشرها. ومن مظاهر إصلاحه إكثاره من فداء المغارم. وذلك أن ذوي الشوكة في الماضي كانوا يفرضون مغارم على بعض المجموعات و في مرحلة لاحقة تحاول هذه المجموعات التملص من ذلك، فيشب بينهما نزاع. وقد بحث هذا النوع قديما وطرق التدخل فيه شرعا من طرف العلماء أمثال الشيخ سيدي ومحنض باب وغيرهم.

وكان أبَّاهْ كلما علم بنزاع من هذا القبيل تدخل وافتدى المجموعة الغارمة بماله وفض النزاع حتى طالت فداءاته حولي 30 مجموعة، لا تزال وثائق فدائها موجودة حتى الآن. وكان كلما افتدى مغرم مجموعة معينة يقول: لها هذا لوجه الله تعالى فإن شئتم امكثوا آمنين وإلا فاذهبوا حيث شئتم. ومن ذلك كثرة ما أعتق لوجه الله تعالى فقد قدر معتَقوه بمئات البشر.

رابعا: إنفاقه وكرمه وحلمه: لقد اجتمع في الشيخ سيدي المختار من هذه الخصال ما لفت انتباه محللي شخصيته عن الجوانب الأخرى حتى كادت تطغى على كل من تعرض له أو مدحه أو رثاه.

شيخٌ كساه حلمُه ونَوالُــه حلَلَ القبـــول وخشيةُ الجبار

الشيخ عبد الله ولد داداه (كامل)

حلومهم تحكي الجبال رزانةً وأخلاقهم تحكي الرحيق المشعشعا

ولد الطالب (طويل) إلخ

فكان يقول إنه يخشى أن لا يثاب على الصبر لأنه لا يكلفه ولم يستفزه أي أمر من أمور الدنيا وكان ذوو الحاجات يوردون فيه: (طويل)

تراهُ إذا مـا جئـتَـــهُ مُتَهَلِّلاً كأنكَ تُعطيهِ الذي أنت سائله

زهير في هرم بن سنان

لقد وفَّر الشيخ سيدي المختار لأهل "لحواش" النفقة والكسوة عشرات السنين. وكان القاضي العلامة إسماعيل يقول إن «أباه" اقتدى في ذلك بالشيخ سيدي فاقتدى عبد الله ب "أباه" واقتدى سليمان بعبد الله، فلكل منهم أجر خلَفه.. وكان يوزع على الناس مئات الأضاحي ومئات الحلائب، كما كان يتولى تكاليف المناسبات الاجتماعية التي تقع في حيه كلاً أو جُلاً، كما كانت جماله توزع يوم الرحيل على الناس للركوب وحمل الأثقال. وقد ناهزت مرة مائتي جمل.

ومن نوادره أنه سمع أن إحدى قريباته استحسنت جملا أبيض فوزع عليهن اثنين وستين جملا أبيض في يوم واحد, ومنها أن إحدى جاراته أرسلت تريد طعاما لضيوف نزلوا عندها فلم يبرح يرسل إليها نفس الطعام في نفس الوقت مدة 25 سنة حتى ارتحلت عن حيه. كما أرسلت إليه إحداهن ليلة تريد اللبن

فلم يبرح يوفره لها كل ليلة لمدة تسعة أشهر حتى أخبرته باستغنائها عنه. وكان إذا سأله أحد العيال شيئا فتح له المخزن والتفت عنه ليأخذ مايريد من غير رقيب. وقد حدَّث عنه أحد جلسائه أنه كان معه في سنة شهباء فأرسل إليه أفراد متفرقون بحوائج شتى فقضى ما تيسر منها ووعد الباقي بأنه سيبحث في الحال عن حوائجهم فخطر بالجليس أن "لا يكلف اللّٰه نفسا إلا وسعها فرد أباه: "وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورا".

ومن نوادره كذلك أن إحدى جاراته مرضت مرضا عقليا فاكتتب لها راقيا وطبيبا وتولى تكاليفهما، فوصف الطبيب علاجها في توفير الذرة ولحم صغار المعز مدة ستين يوما، فأعطاها أباه كمية كبيرة من الذرة وستين جذعة معز. وقد أرسل إليه أحد أصدقائه مرة ابنه حافيا في يوم حر فلما أراد الابن أن ينصرف بحث له أباه عن نعلين فلم يجدهما فوهبه فرسا مكانهما.

خامسا: ثراؤه واستغلاله: كان الشيخ سيدي المختار ذا ثروة هائلة صرفت كلها في تقوى اللّٰه ومعالي الأمور، فكان لديه ما لا يحصر من الماشية والزرع والنخل والنقد... فكان يقال إن مماليكه تجاوزت الألف وجماله ناهزت المائتين وقطعان حلائب الإبل تجاوزت أربعة.. أرسل مرة إلى رعاة البقر يريد ما يكفي من الحلائب للعيال والجيران والضيوف فأرسلوا إليه مائة فاستقلها فردوا عليه بأن ليست فيها مسنة ولا بكر، كما أرسل إلى أهل الغنم يريد الحلائب والذبائح ولم يزل يستزيدهم حتى أرسلوا له ستمائة حلوب ومائتي ذبيحة فقال هذا لا يكفي لكن الرسل تعبوا. وكان مِنحارا فقد ذبح في يوم واحد سبع بقرات سمان ووزع لحمها وذلك في سنة شهباء فأنشد فيه ابن أخيه محمد: (طويل)

فتىً ليس بالرَّاضي بأدنَى معيشةٍ ولا في بيـــوتِ الحيِّ بالمُتولِّــجِ

سادسا: الشيخ سيدي المختار مُمدَّحا ومبجلا. كانت الخصال الآنفة الذكر والموروث المعنوي وشخصية الرجل كلها عوامل جعلت منه كعبة للشعراء والمداح والمبجلين، فكان من أكثر الناس مدائح وكانت مدائحه في مجملها مدائح نخبة.. وكانت رائقة لتوفر مقومات المدح فيه: (طويل)

ولا يَحسُنُ العِقْدُ النفيسُ جواهرًا إذا لم يكنْ في جيدِ غانيةٍ تَلْعــا

وكما قال أيضا: (وافر)

ولمْ أمدَحْ لأرضـيـــــه بشعري لَئيمًا أنْ يكونَ أصابَ مَالاَ
ولكنَّ الكرامَ لهمْ ثَنائِي فلا أَخْزَى إذا مـــــا قيلَ قَالاَ

وكانت هذه المدائح ذات سمات مشتركة تنوه بخصال الرجل وأخلاقه وفَعاله... وقد جاءت من جهات متفرقة وعلى أوزان مختلفة وألوان أدب متعددة، مما يعطيها طابعا جماليا خاصا ورونقا أدبيا براقا. فقد تلاءم فيها الشعور والسَّبْك وجسامة المعاني وجزالة الألفاظ وخصوبة الخيال وصدق العاطفة.. فتارة تأتي لتخليد حادثة معينة وتارة تأتي تنويها بشمولية شخصية الممدوح وتارة تنبعث من تأثر روحاني عميق.

وقراءة خاطفة في هذه المدائح تعطي صورة واضحة عن مختلف جوانب شخصية الرجل وتكرس ما نثرنا بعضه في هذه الترجمة. وإليكم نماذج من هذه المدائح.

أ ـ الشعر الفصيح:

1 ـ العلامة والأديب محمد فال ولد عينين الحسني: وهو شخصية علمية

وأدبية مرموقة. وقد جادت قريحته بهذه القصيدة وهي من شموليات المدح، نوَّه فيها بالممدوح وسلفه ودينه وخلقه وكرمه، مطلعها: (بسيط)

يا دارَ مَيٍّ سُقيتِ الغيثَ مِنْ دَارَهْ ... سُقيتِ غيثًا نَميرَ الماء مِدْرَارَهْ
سُقيت غيثا على الأشراط مُنهمرًا ... بالماء مُرخٍ على الآفاق أسْتارَهْ
للّه دهرُكِ ـ إذْ مَيٌّ تُساعدُنا ـ ... كأنها جَيْلَمٌ حَفَّتْ به دارَهْ

ثم يصل إلى وصف الناقة ليتخلص منه إلى المدح:

تُبذِّرُ الصخرَ بالصُّمِّ الخِفافِ كما ... يُبذِّرُ السيدُ المختـــــــارُ دينارَهْ
فإنه السيدُ المختارُ خِيرَتُـنَا ... مَنْ خارَهُ اللّهُ قِدمًا وابنُ مَنْ خارَهْ
هو التقي الذي مازال مُبتهلاً ... للّه مُستغرقا في الدين أوْطارَهْ
هو الظريف فلا يَشقى الجليسُ به ... كمْ نال مَنْ جالسَ العَطّارَ أعْطارَهْ
هو الذي تَخْلُفُ الأمطارَ راحَتُه ... إن أمسك المزنُ في اللَّأْوَاءِ أمْطارَهْ
إني سأذكرُ مِنْ أخباره جُمَلاً ... إنَّ الكريمَ تُحبُّ الناسُ أخبارَهْ

2 ـ العلامة الأديب محمد المصطفى ولد الطالب: وهو كذلك عالم وأديب، له مدائح عدة في الشيخ سيدي المختار، نذكر نموذجا من شمولياتها ونموذجا من الصنف المخلد لأمور معينة. من النموذج الأول: (طويل)

أثار دفينَ الشوق مِنْ أمِّ قاسمٍ ... زمانَ الصِّبَا هَبُّ الرياحِ النَّواسِمِ
بجَنْبَـةِ ذاتِ الجِـــنِّ إذْ أنَا يافِعٌ ... بـــــلادٌ بـهـا نِيطَتْ عَليَّ تَمائمي

إلى أن يقول:

فبالسيدِ المختـــــارِ حَسْبِي فإنه ... لَأَغْنَى وأقْنَى مِنْ عَدِيٍّ وحاتِمِ
إمامٌ يَرى الحقَّ الذي ليس لازمًا ... أحقَّ لديـــه مِنْ حقـوقٍ لَوَازِمِ
هو الذائدُ الحامي الذِّمارَ عنِ الوَرَى ... هو القائدُ الكافي هجومَ العظائمِ

هو السَّلْسَلُ العَذْبُ المذاقِ لدَى الرِّضا وأَهْيَبُ مِنْ لَيْثٍ عَبَنٍّ ضُبارِمِ
وما جامدُ الكفِّ الضَّنينُ بمالِه كمَنْ عَوَّدَ السؤالَ نَثرَ الدراهمِ
بقيتَ قَريرَ المجـــــدِ قَرْنًا مُؤمَّلاً بِجُلَّى وإنْ جَـلَّـتْ وَرَدِّ المَظالمِ
ولازلتَ في أمـــــنٍ ويُمنٍ ونعمةٍ تُحَيَّى بقولِ الـزائـريــنَ: ألاَ عِـمِ

ويقول في نفس المنوال: (بسيط)

يا مَنْ تَسامَى فلا طَوْدٌ يُطاوِلُهُ عند الفَخَارِ إذا مَا كَعَّ فاعِلُهُ
يا حاملَ الكَلِّ عنْ كلِّ الأنام ويا مَنْ لا يَكِلُّ لِحَمْلِ الكَلِّ كاهِلُهُ
حَلَّيْتَ دَهْرَكَ شَذْرَ الصِّيتِ مُدَّرِعًا حتى تَحَلَّى بشَذْرِ الصِّيتِ عاطِلُهُ
في حسنِ سَمْتٍ وجودٍ لوْ أُزيحَ بهِ رَيْبُ الزمان لمـــــا خِيفَتْ زَلازِلُهُ
تَفْدي نُفوسُ طَغَـامٍ لا خَلاقَ لها نفسَ الهُمامِ الذي تُرْجَى نَوافِلُهُ
بِمَأْتَمٍ وضُيـــوفٍ نُـزَّلٍ وذَوِي بأسٍ وأرملةٍ حُـفَّـتْ مَنازِلُهُ
وكُلَّ صِنْفٍ بِلا مَـنٍّ ولا مَلَلٍ بما يُناسِبُ مِـــنْ صُنْعٍ يُعامِلُهُ
هَذي مكارمُ أخلاقٍ حَظِيتَ بها وذا المديحُ ومـا أطْراكَ قائلُهُ

أما تخليده لبعض أموره المعينة، فنذكر منه أن الشيخ سيدِي المختار أبطأ مرة في السنغال، فأرسل إليه الشاعر بهذه الأبيات: (بسيط)

يا مَنْ بِأَخْمَصِهِ هَامَ السُّهَى يَطَأُ يا مَنْ هُوَ المَلجأُ اللاَّجِي لَـهُ المْلأُ
يا مَنْ يَسُحُّ إذا شَحَّ الكرامُ يَدًا يا مَنْ يَصِحُّ إذا يُعْزَى له النَّبَأُ
تاهتْ بكمْ سِينغالُ العامَ وارتفعتْ على البـــلادِ فما سَلْمَى وما أجَأُ؟
هذا ولا زال روضٌ نحوَكمْ عَطِرًا يُرْعىَ بهِ الحمدُ لا يُرعَى به الكَلأُ

كما يقول في التنويه بالخيمة البيضاء التي كان الشيخ سيدي المختار يستقبل فيها الناس ويضيف فيها كبار الشخصيات وذوي الحاجات: (طويل)

أيا خيمةً بَيْضَـــــا أضاءَ بَياضُها ... سوادَ ليالـــــي الهَمِّ حتى تَقَشَّعَا
تَفَيَّأُ في قَيظِ السَّموم ظِلالُها ... تَفيءُ إليها الناسُ مَـثنَى ومَرْبَعَا
تَبَوَّأَهـــــا دارًا كِـرامٌ أعِـــــزَّةٌ ... فما نطقوا العَوْرَا ولا الفُحْشَ أجْمَعَا
حُلُومُهُمُ تَحْكـــــي الجبالَ رَزانةً ... وأخلاقُهُمْ تَحْكِي الرَّحيقَ المُشَعْشَعَا
فلستَ تَرَى مِنْ زاجرٍ عنْ وُلوجِها ... ولا مُكْفَهِرٍّ الوجهِ في وجهِ مَنْ دَعَا
فَدَتْكِ وقَلَّتْ في فِداكِ عَواصِمٌ ... عَصَمْنَ مِنَ الآفاتِ كِسْرَى وتُبَّعَا
وجادكِ مِنْ نَوْءِ السِّماكِ غَمَائِمٌ ... أَبَانَ خَطيبُ المُزْنِ فيها فأَسْمَعَا

3 ـ العالم الجليل والشاعر المُجيد عبد الودود ولد سيدي عبد الله: لقد كان مدح عبد الودود لابَّاهْ من المدح الشمولي، إلا أنه أخذ أسلوبين مختلفين: أولهما أسلوب القصيدة التقليدية. والثاني أسلوب الألفية. وهو ضرب استحدثه النابغة القلاوي في أرجوزته في مدح أحمد بن العاقل، فيكون شطر من إنشائه وشطر من ألفية ابن مالك. مثال النوع الأول: (طويل)

لزينبَ أطلالٌ بِنَـــــجْـــدٍ بَلاقِعُ ... كما رَجَّعَتْ وَشْمَ الذراعِ الخَرَائِعُ
وبالغُـــرِّ والمُسْتَـوْفِـــزَيْنِ مَنازلٌ ... لِما يَعْرُني للْعيْنِ عنها أُخادِعُ
وبالجانب الغربي مِنْ زَارَ ادْؤُرٌ ... لِعِرفانِها وَجْدًا تَذوبُ الأَضالعُ
وبينَ رُبى تنْدَوْجَه والبُتْرِ أَرْبُعٌ ... مِنَ العارِ عنها أنْ تُصانَ المدامِعُ
وَدُورٌ لَدَى الميمونِ أضحتْ بَلاقِعًا ... وأخرى إلى نَعْفِ الذّراع بَلاقِعُ
ولاحت على ميمونَ دورٌ كأنها ... بَقايا سطورٍ دَنَّسَتْها السَّمانِعُ
هنالك غيطـــــانٌ ودورٌ وأنْجُدٌ ... هَواهَا قديمًا أرضَعَتْنا المَراضعُ
ولَمْ تُسْلِنا عنـــــــها بلادٌ قريبةٌ ... ولَمْ تُسْلِنا عنها بلادٌ شَواسِعُ
وصَوْنُ الذي يَرعَى العهودَ دُموعَهُ ... عنْ أطلالِها تَسْتَكُّ منه المسامعُ
ودمعٌ مُفاضٌ وَسْطَ دورٍ لِغيرِها ... على زمنٍ ولَّى فَذا الدّمعُ ضائعُ

مَرابِعُها هـــــي المَرابِعُ والرُّبَى فَياحَبَّذا تـــــلك الرُّبَى والمَرابعُ
عَسىَ مَنْ نَأَى عنْ تلك جسمًا وقَلْبُهُ بها مُطمئـــــــنٌّ تَرْتَجِعْهُ الرَّواجِعُ
فيُلقِي عصا التَّسْيارِ عندَ مُرَزَّإٍ به البَدْأُ إنْ عَدَّ الكرامَ الأَصَابعُ
هو السيدُ المختــارُ مِنْ كُلِّ سَيِّدٍ إذا قُرِّبَتْ جُرْدُ المعالي الجَراشِعُ
هو السيدُ المختارُ مِنْ كُلِّ سَيِّدٍ إذا سُـــــلَّ للعَلْيا سيوفٌ قَواطِعُ
هو الغيث لم يَرعد هو الليث في الوغى إذا احمرَّ أُفْـــــقٌ أو تَبَدَّتْ طلائعُ
على أنَّ مَرْعَى الغيث يَنْبُتُ بَعدَهُ وتَرْتَعُ عندَ السَّحِّ مِنْ ذا الرَّواتِعُ
ويدفعُ سيل الغيث ما كان عُدْمُلاً ولكنَّ هـــذا السيـل للفقر دافعُ
ولِلَّيْثِ مِنْ خُبْثِ الطَّوِيَةِ هَيْبَةٌ فكانتْ لِذا جُدًّا بها الجَدُّ شَائعُ
لَهَيْبَتُهُ والفضلُ والجــودُ والنَّدَى لِآبائه الغُـــــرِّ الكـرامِ طَبائعُ
أولئك قومٌ كان ذا الطبعُ إرْثَهُمْ فَسِيان فيـــه شِيبُهُمْ والرَّواضِعُ
أولئك قومٌ أســس اللّٰهُ أمْرَهُمْ على فعلِ ما أَهْدَتْ إليه الشَّرائعُ
كفاهُمْ بأنَّ الضيفَ منهمْ مَبيتُهُ يكونُ به حرصًـــا عليهِ التَّنَازُعُ
ويُكْسِبُ ذاك الضيفُ مَنْ باتَ عنده عَلِيَّ مَقامٍ دُونَـــــهُ البدرُ طالعُ
ويكفيهمُ فَخْـــرًا بأنَّ طباعَهمْ لها ذُمَّ عِطْرٌ مِنْ أُمَيْمَةَ ضَائعُ
ويكفيهمُ فخرًا بأنَّ أكُفَّهُمْ تُذَمُّ لها غُـــرُّ الغَمامِ الْهَوامِعُ
فلازال أصلُ المجدِ راسٍ لَدَيْكُمُ وأغصانُه غُـــرٌّ لديكمْ يَوانعُ
ونلتم من الفردوس أعْلَى جِنانِها إذا عَظُمَتْ يومَ الحسابِ الرَّوائعُ
ونلنا بكمْ قَصْـــدًا هُناك مُتَمَّمًا فإنـــا بـــه لا غيرُ فيكم طوامعُ
صلاة وتسليم على صاحب السُّرَى وآلٍ وصَحْبٍ مـــا النجومُ طوالعُ

ويقول فيه بنفس الأسلوب: (طويل)

أَلَمَّتْ بنا وَهْنًا لدى الشام هجَّعًا لِمَيٍّ خـــيـــالاتٌ ووَلَّيْنَ رُجَّعَا

ألَمَّتْ خيـــــــالاتٌ لِمَيٍّ فذكَّرت ... فؤادي ميـــــــًا فاستهام وأوجعا
فبت سمير النجم أشكو بلابلي ... لذكرة مَـــــيٍّ مستعيذا مُرجّعَا
أسائل مني الطرف والجنب عودة ... لِمَيٍّ فيأبى أن لنـــــوم يرجعا
ولما رأيت النوم حَـــرَّمَ مقلتي ... وجنبي شوقا مـــــا تبوأ مضجعا
نهصت إلى كوماء وجنا شملة ... تساوي إذا مرت دميثا وجعجعا
إلى عُبر أسفار أنيلت منا سما ... إذا لاقت الصخر الأيَـرَّ تمزَّعا
كأن رنين الصخر من تحت خفها ... رنين رصاص يوم هيجاء وقعا
وتكبو إلى الرياح العاصفات وراءها ... إذا راكب أبدى من السوط إصبعا
وهل تستطيع الريح شأو شملة ... تؤم الهمام المستماح السميذعا
وهل تستطيع الريح شأو شملة ... تؤم امرءا قد طاب مرأى ومسمعا
يداه سحاب المسنتين إذا همت ... ومن وجهه بـــــدر الدياجي تطلعا
ولا برق في تلك السحابة خُـلب ... ولا بدر فيهـــــا بالأفول تقنعا
فلا زلتمُ في الخلق غـــرة أدهم ... ولازلتمُ للحـــق كهفا ممنعا
ولازال حصن المجد والجود حصنكم ... ولازال ذاك الحصن أعلى وأرفعا
كفاكم من العليا بني محمد ... عليه صلاة مـــــــا هلال تطلعا

أما الأسلوب الثاني فنذكر منه ألفيتين، أولاهما: (رجز)

مالِيَ ساهـــــــرا بليـــلٍ أَلْيلِ ... مُـــــروَّعَ القلب قـــلـــيلَ الحِيَلِ

إلى أن يقول: (رجز)

والعينُ كلـما ذكرتُ فضلهْ ... لها بكًـا بكـاءَ ذات عَضْلَهْ

ويقول:

ومَن إذا الخطبُ دَهى وجئتهُ ... تقول زيـــدٌ رجـــل ما شئتهُ

ومن إذا القحط تـــوالى زمنَا يقول للضيف هنا امكث أزمُنا
ومَن إذا أتيتَ بـــابَه أتى زيدٌ مُنيرا وجهُـــه نِعم الفتى
هو الأمير إن نـــأى وإن دنَا ورجلٌ مـــن الكرام عندَنَا
ولا يَمُنُّ أبـــــدا ما وهبا لو كان مثلَ ملْءِ الأرض ذهَبا

ومطلع الأخرى: (رجز)

حمدا لمن كـان قديما وترا ولم يزل وتـــرا يحب الوترا

4 ـ العالم الجليل واللغوي البارز عبد الله العتيق ولد ذي الخلال: وتتناول قطعته هذه حادثة معينة، ذلك أنه وفد إلى الشيخ سيدي المختار يريد كمية من الزرع فأعطاه إياها وحملها على جمله، فلما كان في طريق العودة عَطِب جمله ومات، فأراد أن يحمل الشيخ سيدِي المختار ـ بظرافة ـ مسؤولية الجمل، لأن سبب موته كان كثرة ما أعطاه من الزرع، ففهم الشيخ سيدِي المختار الطرفة وعوض الجمل. والقطعة هي: (بسيط)

يا معملا رائقـــا في النص عاملَهُ لا يُتعبُ النص والدِّيدَا عواملَهُ
لي بلِّغ السيـــدَ المـختـارَ مَأْلُكةً بعد السلام وقبِّلْ لي أناملهُ
لا زال يوتي كما يوتى ولا برحتْ تَخِرُّ من هَيْبةٍ شوسُ الأنامِ لهُ
أخبره أنْ غالَ نِضوي ثِقلُ زرعكمُ لولا الحياء حبست اليوم جامِلهُ
حتى يعوِّضنـــي عنـــه مماثلَهُ لكنْ أنا السَّمْحُ لا يوذي مُجاملهُ
أحرى إذا كان طَلْقَ الكفِّ سائلهُ يُلْفِي النَّوالَ بأطراف الثُّمام لهُ

5 ـ وهذه المرة مع الفتى الأديب ذي الخط الرائق سيدي ولد عبد الله: وقصيدته هذه من شموليات المدح: (بسيط)

قد طالما ذُدتُ أفكاري عن المِدح ... إذْ في الأنام الدواعي اليومَ لم تُتحِ
وصنتُ عنها لساني والجَنانَ ليـ ... ـلاً ياتِيا مَقصدا في الشرع لم يُتحِ
قالت ليَ النفسُ والأفكارُ سابحةٌ ... من المعاني ببحر غير منتـــزحِ
لا تَمدحَنْ ذا جَنانٍ غير مُنْشَرِحٍ ... بالمدح أو ذا بَنانٍ غير مُنفَتحِ
وعندَ سَبْرِي الرِّضا المختارَ قلتُ لها ... ثقي بمُنفتـحٍ منه ومُنشَرِحِ
بطلعة السيد المختارِ قُدوتِنا ... قد راح ذا فرحٍ مَن كان ذا تَرحِ
فالآنَ فاصدعْ على رَغمِ الحَسود بما ... قد كنتَ جمحتَهُ من مدحه وبُحِ
فهو القمين بما قد كان نَمَّقه ... من رائقات القوافي كل ممتدح
وهْو الوَهوبُ بما لا اليَمُّ واهبُهُ ... ولا جدى المُعصراتِ الوُطَّفِ الدلُحِ
إذا رأت شَبَحًا عيناهُ من بُعدٍ ... يغشاهُ بالبشر والشيزيَّة الرُّدُحِ
حتى ينالَ الغنى مما يخوِّلهُ ... ولم يَسَلْ أحدا عن ذلك الشَّبَحِ
غيثٌ مغيثٌ إمامٌ عادلٌ ورِعٌ ... سهل السجايا بغير الحق لم يبُحِ
درَّاء ذي الخطل الضَّليل دامغهُ ... بفصل حقٍّ من الأقوال مُتَّضِحِ
إن يندري كان ذاك الحزم منه وإلاَّ ... ـا قر عينا بقـــانٍ منه مُنْسَفِحِ
فتى ترعرع بالعلياء مغتذيا ... من بلْه ما نال من آبائه المِلَحِ
قد كان مصطبحا منها ومغتبغا ... طوبى لمغتبقٍ منها ومصطبحِ
فتى لدى بابه من كل ناحية ... قد تلتقي طرف الغادين والروح
كل تعوَّدَ منـــه أن يقول لهُ ... نلت المؤمل أيَّـا كان فاسترحِ
وليس إنْ مسَّهُ ضـــرٌّ بذي جزعٍ ... وليس من نيلـه السَّرَّاءَ بالفرَحِ
يا بارك الله في الأبنا وفيه وفي ... جميع الأمـــة من دانٍ ومنتزِحِ
ودام لي ولهم ما سَرَّ أنفسَنا ... وأنفس الأهل مِن أمْنٍ ومن فرحِ
بجاه أحمد نبراسِ الهداية مَن ... لولاهُ لِلعَيْنِ هذا الكونُ لم يَلحِ
عليه أزكى صلاة لا انتهاءَ لها ... ما فاز بالربح منه مُبْتغى الربحِ

والآلِ والصَّحْبِ مَن مهما قرعت بهم مسدودَ بـــابٍ إلى الفتاح ينفتحِ
معها سلامٌ يفوقُ المسكَ عرفُهما كالنجم عـدا وكالأمطار والرِّيَحِ

6 ـ ويشارك الأديب الكبير والطبيب الماهر أوفى ولد محمد ولد أوفى في شموليات مدح أباه: (كامل)

سَلْ دار ميـــــةَ واختبر اخبارها ريث اصطبارك ان فقدت مزارها
يوما يساعدك الزمـــان بـوصلها إن السعادة في وصـــــالك دارها
دع دارها مهمـــــا نأتك تخلصا تجد الفتـــــــوة يممت مختارها
إن الفتوة قبلـــــــــــه آهٍ لها خاضت بحار هلاكهـا وقفارها
لما غدت بلدانها وعـــــــرا غدا مأوى الأرامل مطلقـــــا اوعارها
لما بدت امطار غـــــــر سحابها عادت يـــــــداه فيمتا أمطارها
خضعت دراهمـــــه وفتش سرها ان لا تحـــــــن مفتشا أسرارها
تاوي إليه المـــــكرمات كأنها دكت دعائمَـــــه تريد عمارها

7 ـ كما يشارك في الشموليات الأديب أحمد ولد المختار فال يقصيدة مطلعها: (وافر)

سلام كالســـــلاف بلا زوال لهُ أرى كســـــا قُـنَنَ الجبال

إلى أن يقول:

إلى معطي العطاء على ابتهاجٍ إلى ليـــــــث إذا دعيت نزال

8 ـ وهذه المرة مع مشاركة العامل الضابط والأديب الشهير محمد المصطفى ولد أحمد ولد المصطفى (تَـتًّا) في الشموليات حيث يقول: (طويل)

على شيخنا المختار صافي العناصرِ سلام يساوي صيتَه في المعاشرِ

ويزري بعرف المسك والند عرفُه ... فما هو إلا وفق مـــا في الخواطرِ
مبرِّز حلْباتِ الرِّهـــــان إلى العلا ... يتيمةِ عقدِ المجدِ حـــاوي المفاخرِ
فشيمته علم وحلـــــم وسودد ... بهجر المناهي وامتثـــال الأوامرِ
وأفعاله طُرًّا مَـــــواضٍ جَوابِرٌ ... فأضحت بها نهبًا جنـودُ الزواجرِ
يزين سماه النظمَ إن صيغ وسْطَهُ ... فتحسبهُ دُرًّا بطـــــونَ الدفاترِ
أطال إلهُ النـــــــاس فينا بقاءهُ ... لإحياء معـــروفٍ ورمسِ المناكرِ

9 ـ أما الصنف الثالث من المدائح وهو المنبعث من التأثر الروحاني وهو ما يعرف بمدح المريدين لأشياخهم واستعطافهم إياهم، فنعطي مثالا عليه قصيدة مريده الشيخ محمد بافودى: (كامل)

بعدُ المزار أشـــــــار بالتوْقانِ ... وتذكر الأحبـــــــاب والأوطان
يا رُبَّ ليلٍ بـــــتُّ فيه كأنني ... أرعى النجوم مســـهَّدَ الأجفانِ
إن رمتُ إيثارَ السُّلُوِّ يهزني ... ذكرُ المنازل قد عفـــتْ لِحِسانِ
حورٌ قضيتُ مُنى الشبيبة والصِّبا ... بربوعهنَّ مـــواصـــلَ الأخدانِ
أختال في بـــــــرد البهاء مُرَفِّهاً ... في ظل عيش مـــورقِ الأغصانِ
هل ترجع الأيـــــامُ دهرا بعدما ... طارت بـها العنقـــــاء منذ زمانِ
هيهات يرجى في الشيُوخة والوهى ... عودُ الـمُسِـــنِّ لحـــــالة المردانِ
فتخلَّصَنْ عـن ذكر كل حبيبة ... تُـهْوَى بذكـــــــر أحبة الرحمن
أعني بهم أعلامَ ديـــن المصطفى ... في كل عصـــــر آمد الأزمانِ
فهم الذين يحبـــــــهم ويَوَدُّهمْ ... من كـــــان ذا لب وذا إيقانِ
وهُـمُ مناخُ المعتفـــــي والمرتجي ... وهمُ ملاذُ الخـــــائف الحيران
أعوانُ خلق اللـــــه سادة أرضه ... أكرم بهم من ســـــادةٍ أعوانِ
فبهم يغيث اللـــــــه كل بلاده ... وبهم يغيـــث إذا استغاث الواني

وبهم يسهِّل للمـــــــريد مرامَه ... وبهم يصـــان من المريد الشاني
فاذكر حلى الأعلام واقصد شيخَنا ... غوث الزمـــــــان العارف الربَّاني
شيخ المشائخ سيدي المختار مـــن ... اختـــاره المولى على الأعيـــان
وعلي حتما أن أجيد بمدحـــــه ... شعـــرا حسينا يزدري بجمـــان
ما ذا عسى أبدي به فيمن حـوى ... قبل الفطام مـآثر الثيـــران
إذْ كان أورثــه ابوه وجـــــده ... شانا عظيما يا له من شـــان
فحوى الحقيقة بالتحقق بعد مـــا ... حاز الشريعـــة صافـى الأذهـــان
شيخ مرب مرشد ومـــــؤدب ... بمحـاسن الآداب للخلـصـــان
متمسك بهدى الكتاب وسنة الـــ ... ـمختارفي الإسرار والإعـــــلان
فعليهما دأبا مدار أمـــــوره ... وإليهما يرنـــــــو بكل أوان
حضراتـــــه محفوفة بتلاوة الـــ ... ـقرآن والأذكار بالإدمـــــان
وبنشر أنواع العلوم جميعهـــا ... ومعارف القاعات في الأزمـان
هو غُنية العافي كريمٌ مُوثـــرٌ ... متعطِّفٌ بَرٌّ شفيـــقٌ حـــان
طود رسـوخ ذو خـوارقَ جمـــةٍ ... في الحس والمعنى زهـودٌ فـان
إن جئته تلقَ البشـــاشة منه في ... هيبة ليث في اللقـــا غضبـــانِ
وإليه ركبان المنى في غـرينـــا ... دأبا من البيضان والســودان
ما بين عاف للـمؤمَّل مرتـــج ... أومحتم لهـواجـم الحدثـــان
أوسائل عن مشكل او ســـالك ... يبغي الوصـــول لمرتقى الأعيـان
يا غوث كل مؤمل متوســـل ... وملاذَ كـــل مـروع حيـــران
هذا المريد يريد منك مزيد مـــا ... عودتموه بـــه مـــن الإحســـان
يهوى إلى أرض الحجاز وشفَّـــه ... تَـوْقٌ إليها أيُّـمـا تَـوَقـــان
أرض بها البيت الحرام لرينـــا ... ومزار طـهَ المصطفى العدنـــاني
صلى عليه الله ما حُثَّ المطـــا ... لمزار ساحـتـه مـن البلـــدان

فاذن له واضمن له بذهابـــــه وإيـــابـــه بسلامة وأمـــــــان
إذن الشيوخ وأنت من كبرائهم إذن الرسول عليه كـــــلّ أوان
أزكى الصلاة مع السلام وإذنُـه إذنُ الإلـــه الـــواهـــب الـمنَّـانِ
إن أنت بالإذن المروم سمحت يـــا عوني ففاية مأمني وأمانـــــي
حاشاكم من أن يرد مخيبـــــا عن بابكم ذو آمـل بعيـــــان
أو ان يخاف صروف دهر من بكم ناط الرجا بالصدق والإيقـــان
قد كنتم عوني فكل مسرتـي منكم ومنكم قرة العينـــان
حتى غدا في البشر كل محبنـا وحسودنا في الغيظ والأشجـــان
حمدا لمن للغوث صحح نسبتـــي وبفضله ومكانه أدرانـــــي
فوجدته شيخا يطيب بالمنـــــى قلب المريد المشتكي العطشـان
يا أهل حضرته السنية حزتـــم فخرا علا بالمفخر المعـــوان
زاحمتم أصحاب كل مفضـل في ذا الورى من اوليا الرحمـــن
هاكم مقال المنتمي لجنان مـن سدتم بخدمته على الأقـــران
ثم الصلاة على الحبيب المرتضـى خير الورى المختار من عدنانـي
والآل مع أصحابه الأعلام مـــا بعد المزار يثير بالتوقـــان

ب ـ الشعر الحساني: ينطبق على مدائح الشيخ سيد المختار من الشعر الحساني ما ينطبق على الصنفين الأولين من مدائحه الفصيحة: المدائح الشمولية ومدائح المناسبات، وتمتاز كلها بالجزالة وشهرة المصادر وتنوع الأوزان. وإليكم نماذج مختارة منها:

I ـ المدائح الشمولية:

1ـ محمد ولد هدار: (لـبْـتَيْـتْ التام)

اتمشيت ابش تمشـــــــــايْ طلع ابتيت اكبار افش جـايْ
طلع ابتيت اسو كاع اشــرايْ هوم بعد الا طلع اكبـــارْ
وَسَيْتِ الـــــــرَّاوِ رَايَ آرَايْ عَنْدِ ذاك انْدوْرْ يحْـــــــرارْ
الـــــــرَّاوِ لَعادْ اللِّ رايْ بالراي اعود الرَّاوِ حـــــارْ
ماه اعليه المدار الجـــــودْ مِرْكبْ سيد المختار انـــدارْ
ويلَ دارُ دَوَّارْ اكُـــــــودْ ويلَ دار افسيد المختـــــارْ
ادَّوَّارْ الل دار اعـــــودْ الل دار اعليه المـــــــدارْ
راهِ اصَّ لَعْبادْ اللَّعْـبَـــــادْ ما تَـعْطِ شِ كـــــون الَ رادْ
لِكْريمْ القهَّار الجـــــوادْ مَعْطَ دون القهَّارْ أخبـــــارْ
ذاكْ اللَّ آثْرُ شِ باطِـلْ عـــادْ راسل بيه الرَّبّْ القهَّـــــارْ
امْعْ عبدُ غيْر آثـــــــرُ زادْ رسَّـالْ امْـعَ سيد المختـــــارْ

2 ـ سيدي ولد هدار: (بُـعُمْـرانْ)

يَـا الْـعَيْنْ ابْـلَـدْ نَبْعْ الجُّـودْ يا اللِّ لِجُّودْ معهـــــــــودْ
كانْ عادِ اجِّـيِّدْ مَكْـــرودْ بيهْ طول الدَّفْر والمـــــــالْ
كَلْ عنْ شِ موجودْ اجُـــودْ بيهْ جِيِّدْ من كصْف الحـالْ
عدتْ فم انتَ جَمْل ارْفـــودْ كلْ ثقْـلُ اكابلْ تـنشـــالْ
شورْ كل اضعيف امشْـــدودْ هازلُ دَاوم الْهُـــــــزالْ
اوشور كل آزكْحَ اعَكْـرودْ ما ايملُّ اُوطبعُ مشغـــالْ
او زاكْلْ اللِّ ماهُ محـــــدودْ اساخْـىَ نفسَكْ بَـزَكَّـــالْ
اباش دام ازَكَّالْ اعُـــــودْ ذاك عندكْ تسْدَارْ اجْمـــالْ

وله أيضا: (لبير)

الل رَ فتسوَ حيلـــــــــتُ واثـكافيه أُتشـــــــــراكُ
كَبْظُ واعطاه اْبْـحيلْـــــتُ ما خلاَّه اُلا صـــــــا كُ

3 ـ امحمد ولد انكذي: (لبتيت التام)

سيد المختار النفـــــــــاسَ فات ابكَ بيهَ عن خاطيـــــهْ
اعرض من مس المسَّـــــــاسَ حجبُ بالمال اللِّ فيديـــــــهْ
واملهمسْ بيه اللَّهْـمـــــــاسَ كل انهار املهمسهُم بيـــــهْ
أُيعرف ذاك الل يتـــــــواسَ من ش يتواسَ وامَّاسيـــــــهْ

4 ـ نزيلُ ولد الشيخ المصطف: (لبتيت التام)

لمخاليكْ الاَّ منْـدَمْـــــــــلَ شورَك واثْعّشِّيهَ واثْجيـــــكْ
اُلاهْ امعشيهَ حد اتـــــــــلَ كون انتَ يلل ابارك فيـــــكْ
واخلمَّكْ لاجاتك لَبْـــــــراكْ مَزْينْ بعد اللَّبْراكْ اعشـــاكْ
امخْلمَّكْ فلْعَوْدانِ احْـــذاكْ منْ كلّتْ عن حد اثْعَاميـــكْ
امخْلمَّكْ يعينِ عفـــــــاكْ فانباتك صهران اماعيـــــكْ
رفـــــدولِ ذاك الذاكْ اُذاكْ رفدولِ ذاك الذَاك اُذيـــــكْ
وَكْبَظْ يذاكْ ايَهاذَ هـــــاكْ ـالينْ ابانْ اظَّوْ اعليـــــــكْ

5 ـ سيدي محمد ولد باب احمد ولد الكَصْرِ: (لبتيت التام)

خبر ويّ سيد المختـــــــــارْ رابطنِ شِ فيه انواسيـــــــه
آن حكٌ مان صبَّـــــــــارْ عن كول الحق انراع فيـــــه
اهو ما هو باغ تظهـــــــارْ اعليه الل داير عربيـــــــه
فيه امن العلوم الســـــرارَ ارعيت حقوق الرب اعليـــــه
الاه كّابل يظهر لغيـــــــارَ من شٍ ينكال انُّ مزّيـــــــهْ

غير ابات اركاب الخطـــــارْ عن كون الل جبرت تحكيهْ
وبات الحذاك النظـــــــارْ تغلط فامر اتراع فيـــــــهْ
واب زاد العزْرِ والجـــــــارْ واكّريب الخلق ابَرَّانيـــــهْ
واب هو يدرك تكـــــــرارْ خصال عادت نور اعليـــــهْ
والقمر من ساعت يقمـــــارْ مايبغ حد ايشير اعليـــــهْ
نورُ مـا يحتاج التظهـــــارْ اُلا يكّدر غطّاي اغطيـــه

ويقول: (لبتيت التام)

اعرفتُ عن سيد المختـــــارْ يولاد ابييرِ كانْ اشبـــــارْ
بالجاه اُلمعاطَ لكبـــــارْ من مالُ والناس اركُديـــنْ
وامسلّك ياسر من لحـــرارْ من ذا السجن اتكال الطيـنْ
الاَ مُوَدّيلُ حمد انهـــــارْ الاه داير من ذاك اخزيـــنْ
واعرفتُ عن زاد ان اصفـــارْ عام معكّود الا فمنيـــنْ

II ـ مدح المناسبات :

1 ـ يقول امحمد ولد هدار بمناسبة قدوم أبّاه وابنه محمد: (لبتيت التام)

مرحبَ ذا اللِّ مـــا ورا هَ وَراءْ ليلت كولتـــــهَ
للرسول افليلت لسْـــرا ليلتْ كولتهَ ليلتـــــهَ
ذاك اللِّ جَ سيد المختـــالـ ـلشَّيخْ ابلدْ وخيرتْ اكبـــالْ
أو للُّ محمد من لطفـــالْ وخيرت اُحكْ احجتـــــهَ
مرحبَ مامنه شِ قـــالْ كولوهَ يخْلِ خيمتـــــهَ
لاَحكْهَ يخوتِ تتكـــالْ عار بعد اللَّ لحكتـــــهَ

2 ـ يقول الشاعر الكبير نزيل ولد الشيخ المصطف بمناسبة مشكلة كانت

بين اولاد أبيير والادارة الفرنسية حينما تحمل ابّاه باهظ الدفع وضيافة المستدعَيْن: (لبتيت التام)

اسمعنَ عن يـطْنَ مَفْكُـــوعْ راسل للناس اتجيه اجمـــوع
تجالُ فات اراه اسبـــــوعْ كلن فُـدّ افْمَـرَّ واخْـــلاصْ
ولحكْنَ هون اللِّ موجـــوعْ إِعَيَّطْ من ظهرُ والـــرَّاصْ
واللِّ زاد اصحيح اُمكلـــوعْ منْ حَرْب انِيتِ والتَّرْهـــاصْ
واللِّ طايرْ كلبُ مخلـــوعْ وِحَجَّبْ عنْ كاصِ ابْلِخْلاصْ
غَيْر اجْلَ عينِ ذاك النَّـــوعْ واعرفت ان لُولَ عينِ خـــاصْ
اللِّ جَ يَفْرَغْ بيه الجُّـــوعْ واللِّ ما جَ يندار افكـــاصْ

وفاتـــــه: توفي الشيخ سيد المختار رحمه الله عن حياة حافلة بتقوى الله والمزايا العامة ومكارم الأخلاق والإنفاق في السراء والضراء وعن عمر يناهز **92** سنة وذلك فجر الاثنين **23** رجب سنة **1370**هـ، **30** / ابريل / **1951**م كما أرخ ذلك العلامة الشيخ عبد الله بن داداه بقوله: (رجز)

سيدنا المختار للحسْنَى ذهبْ في ثالث العشرين من شهر رجبْ
طلوع فجر أهـــون عام شسعْ عنـهُ المخوف والعناء والفَزعْ
أمنه مما اختـــشى الرحمن فللأنـــــــام عمره أمان

كما أرخ وفاته العلامة محنض الفق بقوله: (خفيف)

لثمان بقين من رجب الفرْ د دنـــا للجنـــان بحر العطاء
رحـــم اللـــه خير مُـرْوٍ فأَرِّخْ بدعائي لعـــــام فقد السخاء

تأبيناته ومراثيه: لم يكن التأبين كتابة قبل وفاة الشيخ سيد المختار أسلوبا متعارفا في هذه البلاد إلا أن عظم الخطب ومكانة المعني أملت استحداثه

كلون في الأدب المحلي. كما أن مراثي أباه كلها كانت من طرف العلماء ونخبة الأدباء الموجودين في ذلك الوقت وسنعطي نماذج من التأبينات وأخرى من المراثي.

أولا: التأبينات

1ـ الشيخ عبد الله ولد داداه: "سلام ورحمة الله تعالى وبركاته من كاتبه إلى جميع من ينتسب لشيخنا ووالدنا الشيخ سيد المختار رحمه الله تعالى رحمة شاملة وصب عليه هواطل الرضوان المتواصلة وجعله في أعلى عليين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين من موحبه إعلامكم لا خفضت أعلامكم أن التعزية من سنن الدين وقد شرعها لنا سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ولو كان المعزَّى أعلم وأفضل من المُعزي فإني أعزيكم عن هذا الخطب الفادح الذي عم مصابه جميع المسلمين وأذكركم بما في الصبر من جزيل الأجر وجميل الشكر وإن كنتم تعلمونه فأجر الصبر يعظم بحسب عظم المصيبة قال تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ إلى أُلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» وقال« وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين» وقال « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلى ءاخر الآية وقال ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ويجب الرضا بقضاء الله ويجب حمده على الضراء كما يجب حمده على السراء فما فعله لنا وأحبه لنا قبلناه, ورضينا به وأحببناه وإن لم تتكلفوا أنتم الصبر وتظهروا التجلد فمن يصبر فلستم مصابين وحدكم بل جميع المسلمين مصابون فإن صبرتم صبروا وإلا فلا صبر لأحد منهم قال الشاعر: (بسيط)

اصبرْ نَكُن بكَ صابرين فإنما صبرُ الرعية عند صبر الراسِ

وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الآمرة بالصبر الحاضة عليه الذاكرة لكثرة أجره لا تحصر ومما يعين على الصبر ما رأيناه قد أعطاه الله لوالدنا من موجبات الفوز والرضوان من ذلك أن في الحديث أن من بلغ تسعين سنة غفر الله له جميع ذنوبه صغيرها وكبيرها ومن ذلك حسن خاتمته التي شهدها الحاضر وتواترت عند الغائب ومن ذلك أن في الحديث أن من شهد له اثنان بخير وجبت له الجنة وما على وجه الأرض أحد إلا وهو يشهد له بالخير وما على وجهها من يشهد له بضد ذلك ومنها كثرة من صلى عليه من المسلمين ففي الحديث أن من صلى عليه أربعون غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر إلى غير ذلك من دواعي الرحمة التي يعلمها الخاص والعام قال تعالى : «إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا» وقال «ولا يظلم ربك أحدا» أسأل الله تعالى أن يحقق لنا ولكم ما رجوناه له من الرحمة والمغفرة ونسأله أن يجعلكم خلفا لا خلفا وأن لا يحبطنا أجره ولا يفتنا بعده ويغفر لنا وله ثم لتعلموا أن الذي كنت عليه من المحبة الصادقة والموالاة والتلمذة ومصادقة صديقكم ومعاداة عدوكم قد ازداد وكثر وقوى وتضاعف ونرجو من الله أن يعيننا على الوفاء وأن يجازيكم عنا وعن المسمين أحسن الجزاء. وكتب عبد الله بن داداه"

2 ـ عبد الجليل ولد عبد الرحمن: "بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على المصطفى وعلى آله وصحبه الحنفا ومن تبعهم على دينهم الذي هو خير ما يقتفى أما بعد: فإني معزيكم ومعزي نفسي يا حضرة آل الشيخ سيدي وخصوصا أهل سيد المختار بن الشيخ سيدي بعزاء الإسلام وهو أن تقولوا إنا لله وإنا إليه راجعون فيكون عليكم صلوات من ربكم ورحمة وتكونوا مهتدين قال عمر نعم العِدلان ونعمت العلاوة وقال

الأعرابي الذي عزى ابن عباس في أبيه: (بسيط)

اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعيــة عند صبر الراس
خير من العباس أجرك بعده واللّه خـــــيـــــر منك للعباس

واعلموا أن الموت ليس حراما على الكرماء قال الشيخ سيدي باب: (كامل)

ليس الكرام على الردى بحرام يَعْتامُهُمْ في الحـــــل والإحرام

وقال عنترة: ليس الكريم على القنى بمحرم٠ وأشهد أن سيد المختار بن الشيخ سيدي من أجود الناس في هذه البلاد وأحلمهم وأصبرهم وخصلة الحلم والبذل والصبر لا يماثله فيهن أحد مما نعرف ومقر للأضياف ويصل الرحم ويحمل الكل ويعين على نوائب الحق ولقد صدق فيه قول كعب بن زهير يمدح الأنصار: (كامل)

قوم إذا خَوَت النجوم فإنهمْ للطـــارقين النـــــازلين مَقَارِ

وقال آخر: (طويل)

متى تأته تعْشو إلى ضوء ناره تجد خيرَ نار عندها خيرُ موقِد

وقال آخر: (طويل)

سريع إلى الأضياف في ليلة الدجى إذا اجتمع الشفان والبلد الجدب

وقال آخر: (طويل)

تراه إذا ما جئتَـــــــــهُ متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال آخر في مدح ترك المن وكتمان النعمة: (رمل)

زاد معروفَـــك عندي عِظَمًا أنه عندك مستـــــــور حقيرْ
تتناساه كـــــــــأن لم تأته وهْـو في العالم مشهور كبيرْ

وهذا والله صادق في سيد المختار رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنته وجزاه الله خيرا عن كل ما يعرفه من قريب وبعيد وصديق واعلموا أن ما عند الله خير للأبرار وأن الله لا يضيع أجر المحسنين وكتب خادمكم عبد الجليل بن عبد الرحمن".

ثانيا المراثي: تتسم بشموليتها ووحدة موضوعها وصدق عاطفتها واتفاقها كلها على مكانة المرثي وشمائله وإليكم نماذج منها:

1- العلامة الشيخ عبد الله ولد داداه: (كامل)

جادت هواطــلُ ديـمَـةٍ مِـدْرارِ ... من مُـزنِ عـفـو إلهنا الغفارِ
يدنو بـهـا مـا قد يسُرُّ وينزوي ... ما يُختشَى من سائر الأخطار
وتُنيلُ أمنا لا مخافة بعده ... وإقامةً بمنـــــــــازل الأبرار
جدثَ الإمام أخي المعالي المرتضى ... شيخِ الشيـــــوخ السيـدِ المختار
شيخٍ كســـــــاهُ حلمُه ونوالُه ... حُلَلَ القَبُـول وخَشْيةُ الجبَّارِ
عَيْنِ الأنامِ وعَرْضِهِ فبهِ قضى ... ما يُرْتجَى مـــن جملة الأوطار
ورث المكارم من أبيه وجده ... وقفا سبيل السادة الأخيار
فأتى يُجاري الأكرمين ولم يكن ... عند السـبـاق مُثَبَّطَ الإحْضار
كم قدْ أتى يومَ الرِّهانِ مُجَلِّيًا ... يَشْـئُو فَـوارسَ حَـلْبةِ المضمار
ســـــادَ الأنامَ سيادةً مَصحوبةً ... بتأدُّبٍ وســـــكـيـنـة ووقار
فيزيدُهُ جـهْـلُ الجَهولِ تواضعًا ... لكنه ما شِـيـــبَ باستكبار
ومرارةُ الصبر الكريهُ مَذاقُها ... تحكي لديْـهِ شُهْدَةَ الْـمُشْتارِ
صُبْحُ الهداية مُسْـفِـرٌ في وجهُه ... تُـجْلَى به الغَـمَّـا عـن الأبصار
وكَسَتْه أنوارُ المعـارف حِلْيَةً ... تزري بحلية لؤلـــــؤ ونضارِ
قد كان أمْنَ الخائفين وملجأً ... للمشتكي ويسارَ ذي الإعْسارِ

تَشْقَى بِـصَـارِمِ جُودِهِ أنعامِهِ لِسَعادةِ الأضْيـــاف أو للجارِ
إن الزمان إذا يَضن عن الورى بشبيهه ما إن يُعـــــابَ بعارِ
فَلْتَبْكِهِ أهل الحوائج كلُّهم من مجتد أو جائـــــع أو عار
ولْتَبْكِهِ كُتْبُ العلوم جميعُها قرآنِـــها والــفقْــهِ والأخبارِ
فجزى إله العرش جَــلَّ جلالُه بجزائه الأوفَـــــى أبا الأقمارِ
الوارثين طبـــــاعَه وخِــلالَهُ والجودَ بالدِّرْهـــــامِ والدِّينار
والباذلين نُفـــوسَهم ونفيسَهمْ في كسْب مكْرُمةٍ ونيْل فَخار
والصابرين فليس يوجدُ فيهمُ من مُسْتكـيـنٍ لا ولا خَوَّارِ
عَجبًا لهم لم يجزعوا لمصيبةٍ عَمَّتْ جميـــعَ البدْوِ والأمْصارِ
حفظ الإلهُ السَّيدَ المختـارَ منْ كلِّ المْكـــارِه غابرَ الأَدْهَارِ
وأحله دار الســـلام مـجـاورا لمحمد صلـــــى عليه الباري
وأَقَرَّ عَيْنَـيْ كُلَّ مَن يُـنْمَى لَهُ في هذه الأولى وتلك الدار
وجزاهُمُ عن صبرهم ومصابهم وحماهـــمُ مــن سيئ المقدار
وحباهم ما أمَّـلُـــوا وكفاهمُ حِلْفَ العـــداوة باسمه القهَّار
صلواته وســلامـــــه لنبيــه والآل والأتبـــــاع والأنصار

2 ـ العلامة محمد سالم وعبد الودود:

أجِـــدَّكَ ما سمِعْتَ بكلِّ نادِ علانيةً مُـنـــــــاداةَ المنادِي
بأنَّ السيدَ المختـــــارَ وَفَّى وأصلد بعـــــده واري الزِّنادِ
قضى داني الثِّـمارِ بـلا تَـمَارٍ ومرتفعُ العِـمـادِ بِـــلاَ عِـنادِ
كفَالُ أرامِلٍ وفِكـــاكُ عانٍ ومُغني آمِـــــــلٍ وجَمالُ نادِ
وجامعُ جامـــــع لا لَـغْوَ فيه سَواءٌ عـــــاكـفٌ فيه وبـادِ
قضى رب العباد بِـذا رَضينا بما يقضي بـــــه ربُّ العِـبادِ

وقَدْ رَجَفَتْ لِغَيْبَتِهِ الأراضي ... وقَدْ برزتْ بأثـــوابِ الحِدادِ
وقد كَلح الزمانُ لِمَــا عراه ... وأبدَى عن نواجـــذِه الحِدادِ
وقد عمَّتْ رَزيَّتُـــــه البرايا ... بفقدِ مُـرَزَّإٍ جَـــــمٍّ الأيادي
حميدُ عواقب الأفعـــالِ عالٍ ... أبـِيٍّ الضَّيْمِ مَنَّـاعُ الـقِيادِ
شديدُ شَكيمةٍ شاكي سِلاحٍ ... مُمنَّعُ حَـوْزَةٍ حَـسَـــنُ الذِّيادِ
قضَى وَطَــرًا من الدنيا فَـولَّى ... ورغبتُها إليـــــه في ازدياد
ومن يرجو البقا من بعد عادٍ ... وآلِ مـحـــــــرِّقٍ وبني إيـاد
وما بقيَ الرِّبـــــابُ وآلُ زيـدٍ ... على الأُدَمَى وأَوْدٌ والإِيـــادي
هداهُ إلى الطريقــة خيرُ شَيْخٍ ... فسارَ إلى المَعـــــاد بخير زاد
بخمسِ نَـجـــائبٍ وأَدَلِّ هـاد ... رفيق بالأَداوي والمَـــــــزاد
وماءٍ كان يَسقيـــــه لِصادٍ ... ومالٍ كان يُعطيـــــه لِجادِ
وظِـلٍّ كان يرفَعُــه لِعـافٍ ... بـِدارٍ أو خِبـــاءٍ أو بـِجادِ
وضوءٍ كان يُـذْكيــه لِسـارٍ ... على أَرْبَـى الـرَّوابـي والـنِّجادِ
وقدْ كثُرتْ مدائحُه فَقَلَّتْ ... وفيضُ الحمدِ منه في امـتـدادِ
فكيف يَغيضُ جَمَّته لساني ... وكَفِّي كاغِدي قلَمي مِدادي
فَـلَم تَـنْفَـدْ مَحامدُه بِـعَـدٍّ ... ولا تَـفْنَى إلى يـوم الـتَّـنـاد
ولم يـكُ بَيْنَـه في كـل حمْدٍ ... وبينَ مُحَمَّـــدٍ عَيْبُ السِّنَادِ
فهذا الـنَّوْرُ من تـلك الغوادي ... وهذا الْمُهْـرُ من ذاك الجوادِ
وكلُّ بَـنـيـهِ شمسُ هُدًى ونـورٍ ... تَـعُمُّ على الحواضرِ والـبـوادي
ولَـيْثُ رَدًى يُـنَـكِلُّ كلَّ عادٍ ... وغيثُ نـدًى يُطَبِّقُ كلَّ وادِ
وقد أبقوا لـــــه ذكرا جميلا ... يُـؤَسِّـي كلَّ مَـقْـــروحِ الفؤاد
وكلُّ بَـنـي أبيهِ إمامُ عدْلٍ ... جوادٌ باســـلٌ يـــــومَ الجِلادِ
حَوَوْا شَرَفًا على شَرَفٍ وضموا ... من المجدِ الطَّريفَ إلى الـتِّلاد

رعـــــاهُ اللّه فيهم واجتباهم وأبقاهم سَـمـــــــــاءً للبلاد
ومَـتَّـعَه بِـريْـحـــــــان ورَوْحٍ وجنـــــــاتٍ على وَفْـقِ الْمُرادِ
بجاه المصطـــــفى صلى عليه وسلَّـمَ سامِـكُ السَّـبْـعِ الشِّدادِ
مع الأصحاب والآل الطهارى وتابِـعِـهِـمْ إلى يـــــوم الـمَـعادِ

3 ـ العلامة المؤرخ المختار ولد حامدٌ

إبْكُوا على المجد إنَّ المجْدَ قد رَحَلاَ واستفرغوا الدَّمعَ حتى تَنزفوا المُقَـلاَ
وليحزَنِ القلبُ لكن لاَّ يَقُلْ أبدًا ما يُغضبُ الربَّ مَـرْضِـيٌّ قَضًا نَـزلاَ
كان الندى أمس يمشي بين أظهُرنا والفضلُ والخيرُ كُلاًّ مِشْيةَ الخُيَلاَ
إذْ حِلْيةُ السيِّـدِ المُخـتــارِ جوْهرُه مظاهرًا كِسْوَتَيْـهِ العلمَ والعَمَلاَ
مُـزَّمِّـلاً بِـثُـقًى مُدَّثِّـرًا بِـنَـقًا للنَّهْـيِ مُجْتنِبًـا للأمر مُمْتـثـلاَ
وعارِجًا في سمـــاء المجد مُـرْتَـقـيًـا مُستسْهلَ الصَّعْب حتى أدرَكَ الأمَلاَ
قـــامتْ على أرْبَعٍ للفضل دَوْلَتُه إذْ ذَّاكَ فينا فَكُنَّا كلُّنا فُضَـلاَ
إذ نَـقْـتدي بهُدَى شيخٍ خَـلائِقُهُ أعْدَتْ بَهيمَتَنا فضلاً عن العُقَلاَ
فَـلاَ تَـرَى فَـرَسًا فينـا ولا جَـمَـلاً إلاَّ كـريمًـا ولا جَـدْيًا ولاَ حَـمَـلاَ
وفارقَ الناسَ داءُ اللُّـؤْمِ وانبعَثوا إلى المكارم عـاليهُمْ ومَن سَـفُـلاَ
وشَـعَّ في الأفْق ضوءُ المجد مُنتشرًا وأَلَّ لَمْـعًا وعَمَّ السَّـهْـلَ والجَـبَـلاَ
حتى تُـخَـيِّـلَ أنَّ الأرضَ تُـنْبِـتُـهُ وأنَّ كُـلَّ حصادٍ في الـزروع عُلَى
وأصبح الْيَنْعُ والمِسْمارُ قَد دَّخَـلا منه الغصونَ وأَزْهَى مُثمِرًا وحَـلاَ
وأنبَتَ الحبُّ منه كل واحدة سَبْعًا سنابلَ سَدَّ السُّنْبُلُ السُّبُلاَ
بيضًا وحُمْرًا فلما اعْتَمَّ كوكُبه وانهَلَّ قَطْرُ النَّدى في روضه خَضِـلا
ولَّى فودَّعَ منه لـــــم يَمَلَّ ثوًى إذ وَدَّعَ السيـدُ المختـار مرتحلا
لَوْ أنهمْ ظَهَروا الْمِـرِّيخَ أوْ زُحَـلاَ لَمْ يُـدْرِكُوا رَجُلاً بالأَمْسِ قَدْ رَحَلاَ
لا حُسْنَ دينٍ ولاَ سَمْـتًا ولا أَدَبًـا ولاَ وَقَـارًا ولاَ طَبْعًا حَلاَ وحُلَى

وَلاَ صَفًا وَوَفًا وَلاَ تُقًى وَنَقًا ... وَلاَ نَدًى وَجَدً وَلاَ عُلاً وَإِلَى
ولا جميعَ خِصالِ الخير ما رجُلٌ ... فينا يُكافئُ يومًا ذلك الرَّجُلاَ
إلاَّ ابنُه ابنُ جَلاَ وابنُ ابنِه ابنُ جلاَ ... يا حبَّذا ناجلٌ منهم ومن نُجِلاَ
ضَرْبٌ لِوَاحِدِهِمْ ضَرْبٌ لِسَائِرِهِمْ ... فَكلُّهم في النَّدى والسُّودَدِ ابنُ جَلاَ
بيتُ القصيدِ وَوُسْطَى العِقْدِ بَيْتُهُمُ ... بَيْنَ الأماجدِ نَصًّا ليس مُحْتَمَلاَ
عَزَّ السُّلُوُّ ولكن مَن سَلاَ بهُمُ ... عنْ ذلك الشيخِ فَلْيُتْرَكْ وما عَمِلاَ
ففي النجومِ الدَّرارِي سُلْوَةٌ وهُدًى ... للمُدْلِجينَ إذا ما بَدْرُهُمْ أَفِلاَ
وحيث عُمِّرَ في الطَّاعاتِ سَيدُنا ... حينًا وحانَ لقاءُ اللهِ جَلَّ عَلاَ
فالخيرُ للشيخِ ما اختارَ الحكيم لهُ ... جاءَ الربيعُ فحلَّتْ شمْسُنا الحمَلا
اللهُ يُكْرِمُ مَثْواهُ بمنزلِهِ ... ويجعلُ الجنةَ العُلْيا له نُزُلاَ

4 ـ العلامة الشيخ عبد الفتاح ولد محمد ولد عبد الفتاح

أَجِدَّكَ لم تجزَعْ لفِقدان سيِّدٍ ... صَفُوحٍ عن الجاني وَهوبٍ لِمُجْتَدِ
ألمْ يَشْمَل الأمصارَ والبدوَ رَزْءُهُ ... إلى كلِّ مَعْمورٍ إلى كلِّ فَدْفَدِ
يبيتُ إذا الْمِبْطانُ نامَ مُسهَّدًا ... لإكرامِ جاراتٍ وخِدْمةِ سَيِّدِ
تعرَّف بالحسنى إلى اللهِ محسنا ... فكان بإرضاءِ أحقَّ مُسهدِ
يرى زهرةَ الدنيا زَهادَةَ جُنْدُبٍ ... وليلتَهُ الدَّرْعَا عبادةَ أحْمدِ
مُبَدِّدُ أموالٍ وجامعُ سُؤدَدٍ ... فأكْرِمْ به مِنْ جامعٍ ومُبَدِّدِ
ثمالُ اليتامَى موثرٌ حقَّ ذي العُلا ... وكان إليه القصدُ في كل مقْصدِ
فيا ليته يُفْدَى بكلِّ ذخيرةٍ ... على أن باقي الصِّيتِ مثلُ مخلَّد
شهادةُ ذي التَّبْريزِ مُجْمِعَةٌ عَلَى ... عدالته والعَدْلُ نافذُ مَوْعِدِ
سَلَوْنَا إذا يابَى التَّسَلِّي غيرُنا ... بِغُرِّ بَنيهِ أحْمدٍ ومُحمَّدِ
وغيرِهِما مِنْ كلِّ حاملِ كَلِّهِ ... مُفَدَّى طويلِ الباعِ مَأْوَى المُطَّرِدِ

كأنَّ وجوهَ الرَّهْطِ ذي الجاهِ رهْطِهِ مَشُـوفُ دنانيـرِ الْمُـجِدِّ الْمُجَدِّدِ
فَخَرْنا به الأحياءَ ما كان بيْنَنَا وتَـزْكو به أهـلُ القبور إلى الغدِ
تَـبَـوَّأَ في الفردوس أسْنَى محلة مُحَيَّا الْمُحَيَّا بالأمـــان الْمُؤَبَّدِ
يُسَرُّ بجعلِ الأهل في أكْمَلِ الْمُنَى وأيمنِ عـَيْشٍ في البلادِ وأرغَـــدِ
على صاحب المعراج أنْـمَى تَـحِـيةٍ من الْمُكْرِمِ الهادي به كلَّ مُهْتدِ

5- العلامة محمد بن أبي مدين: (بسيط)

وَلَّى الحيــاءُ ووَلَّـى الدينُ والأدبُ يا ليت ما قد مضى من ذاك يَنقلبُ
ما السيد الفاضلُ المختارُ مذهبُه إلا عجائبُ فضلٍ كلُّـها عجبُ
حِلْـمٌ لأحْنَـفَ لـــمْ يُقْدَرْ مُماثلُهُ وَوَكْفُ كَفٍّ على العافين يَنسكبُ
وشيمةٌ لمْ يَـرَ الـرَّاءُونَ مُشْبِـهَهَا له أقَـــرَّ بذاكَ الـعُجْمُ والعربُ
ورحمةٌ لِـبَـنِي غَـبْـراءَ فَهْوَ لَـهُـمْ أمٌّ عطوفٌ علـــى عِـلاَّتِـهِـمْ وأبُ
يا رائما حصرَ ما للشيخ مِن مِنـنٍ تُذرِي دموعَك والأحشاءُ تَضطربُ
هيهات حاولتَ ما لا تستطيعُ لــهُ قدْ كَلَّ قبلَك فيها الشعرُ والخُطبُ
فلْيبْكِهِ الضيفُ والجارُ الجَنيبُ إذا ما أخلف المزنُ والإسلامُ والكتبُ
والعلمُ والصَّبرُ والإحسان أجْمعُه وسِـيـرةٌ لَمْ تُـدَنِّسْ وجْهَـها النُّوَبُ
لو بالنفائس منْ ناسٍ ومِـنْ نشَـبٍ صحَّ الفداءُ فَـداهُ الناسُ والنَّشبُ
لكننا مَعشرَ الإسلام ليس لنا إلا الرِّضَى وأجورَ الصبرِ نحتسبُ
والحمد للــه أبقـى سادةً غُـرَرًا تسعى بهم نحوَ ما قد سَنَّه النُّجُبُ
ففي مُـحَمَّـــدِنا السامي وإخوتِه جودُ الجدود وحِلمٌ إنْ هُمُ غَضِبوا
ما مات ما مات مَنْ كانوا له عقبا تبارك اللـــه نعم الشيخُ والعَـقِب
جادت نواحيَ روضٍ زانه سُحُبٌ من رحمة اللّٰه يقفوا إثرَها سُحُبُ
ودام أبناؤه مـــن بعـــده خلفا تسمو بهم رتَبٌ من دونها الرتَبُ

حتى يتم له من بعدهـــــمْ ولهمْ من بعده مِنْ عطايا الواحد الأَرَبُ

6 ـ العلامة القارئ عبد الودود بن حميه (وافر)

ألا لا تَبكِ كفْكِفَنِ الدُّموعَا ولا تَطلُبْ لِفـــائـتٍ الرُّجُوعَا
ورُمْ حُسْنَ العَزاء وعـــدِّ عَمَّـــا يُقَضْقِضْ إنْ أَصَخْتَ له الضُّلوعَا
ولا تَحْـــزَنْ على شَيْخٍ دَعاهُ كريمٌ جلَّ كـــان له مُطيعا
وأبقى من ثنـــاهُ سَنًا مُّبينًا وأبنـــــــــاءً تُبَيِّنُهُ رفيعَا
فلا تبعَدْ أسيـــدَنا المُفَدَّى ومختارَ الثَّـــنـــا أبـــدا جميعا
سقاكَ اللـــه ثم سقـاكَ سَجْلاً مِنَ الفِرْدوسِ مُنْهَبِطًا سريعَا
سقى قبرا ثـويْتَ بـه السَّـواقـي رِهامَ السُّحْبِ والجَوْدَ الْهَمُوعَا
سَقَى اللـهُ القبـورَ بكلِّ غيْثٍ وداوَى اللّهُ مِـنْ كَبِـدٍ صُدوعَا

7 ـ العلامة اللغوي الحسن ولد ابا الجكني (طويل)

هو الموتُ سَهْمٌ لا يطيش مصيبُ وسيفٌ حسامٌ لا يُفَـلُّ قَضيبُ
به كُـلُّ حَـيٍّ لا مَـحـالَـةَ مَيِّتٌ فإنْ لمْ تُصِبْـهُ رَمْيَـةٌ فَضَـريـبُ
فلَمْ يَنْجُ منه عـاقـل بِلَبَابَـةٍ فَسِيَـانٍ فيـه أحـمـقٌ ولَبيبُ
ولا جاهلٌ كُـنْهَ الـدَّوَا لِدوائه ولا ماهـــرٌ في طِبِّ ذاكَ طَبيبُ
ولا مَلِكٌ جَـمُّ الخيولِ مُـــراقَـبٌ ولا حارسٌ شـاكي السلاح رقيب
فكم ناب بالخطب المفجِّعِ غافلاً غدا آمـنًـا أنَّ الخُطوبَ تنوبُ
وفجَّع محـبـــوبًـا بأخـذ حبيبـــهِ فلَمْ يَبْقَ محبـــوبٌ به وحبيب
فُجِـعْنا بِـإِدٍّ دائمِ الرَّوْعِ داهِـمٍ عظيمِ النَّـــثا منه القلوبُ تـنوبُ
وخَطْبٌ تُطيرُ العَقلَ رياحُ رَجْفِهِ تَضاءَلُ منه إنْ أَلَـــمَّ خُطُوب
نَعَى السيدَ المختارَ ناعٍ فَـزُلْزلتْ وطارت بأقطار البلاد قلوب

وأوقد نيـــرانَ الكآبة نعـيُه ... وأُجِّجَ منها في الصـــدور لهيب
وشُقَّتْ جيوبٌ بالدمـوع وشرعُنا ... نَهَى عندَ هذا أن تُشَقَّ جُيوبُ
وقد جـلَّ رزءُ العـــالمين بموته ... وعمَّ وجـوهَ المسلميـن شُحوب
فَتًى سيدٌ نـــدبٌ تـقىٌّ مُهَذَّبٌ ... كريمُ السَّجايا في الخطاب أديب
حسيب نسيب طيب الأصل ماجد ... وفرعُ أصـــول الطيبين يَطيب
على أنه والحمد للـــهِ خَلْفَهُ ... بَنُوهُ فكـــلٌّ سيدٍ ونجيبُ

8 ـ العلامة الأديب محنض الفق

بكى الأهلُ والأقصَوْنَ لمَّا نَعَوْا أبَا ... محمدٍ الشيخَ الهُمامَ الذي حَبَا
فأجزلَ إذْ أرْبَى على حاتمٍ بما ... أنال وما أكدى جَداه وما كبا
وعض عليه في السنين التي أبت ... عن الجود للناس الكرام فما أبى
حوى السيد المختار كل فضيلة ... تناءَتْ وكلَّ العار قِدْمًا تجنبا
سما للعلا طفلا وكهلا ولم يزل ... لديه الندى إِلْفًا عزيزا مُحَبَّبا
أيا روضة الشيخ انعمي وتطيبي ... فقد طاب مثوًى بالسَّخاء تطَيَّبا
ويا رحمة الرحمان أُمِّي ضريحَ مَنْ ... بكل الذي يرضي الإلـهَ تَقرَّبا
وأحْسِنْ عَزائي بعدهُ وعزاءَهم ... وآجِرْهُمُ مَن للْورَى الأجرَ حَبَّبَا
وصلَّى على خير الأنـــام وآله ... وسلَّمَ تسليمـــا وكَرَّمَ واجْتَبَى

9 ـ الأديب الفاضل يعقوب بن أبي مدين:

سِهامُ المـــوتِ صائبةُ المَرام ... وأرواحُ الـــورَى هدفُ السِّهامِ
فمَنْ تُخْطِئه عاش ومَنْ تُصِبْهُ ... فما هي رَمْيَةٌ مِنْ غيْرِ رامِ
فَلَمْ يَتْرُكْ على كَرَمٍ كريما ... ولا حسناءَ تبخلُ بالكلام
ولم يَقِهِ السلاحُ أخـــا سلاحٍ ... مِنَ الغُلْبِ الجبابرة العظام
فلَوْ بالنفس أو بالمـــال يُفدى ... إذا حان الحِمامُ منَ الحِمـــامِ

لَـجُـدْنـا بالنفـوس وبالمـواشي فـداء الشيخ سيِّـدِنـا الإمـام
فَتًى غـابتْ بـغـيـبـتـه المَـعـالي فأمستْ وهْـي ساقطةُ المقـام
ستبكيه الأرامل واليتامى ويبكيه الغريـب على الدوام
وتبـكـيـه الـوفـود إذا ألمـت فِـئـامٌ عَـنْ فِـئـامٍ عَـنْ فِـئـام
جـزاه اللـهُ عـنـا كـلَّ خـيْـرٍ ونـالَ بِـداره أقـصَى المـرام
سقى قـبـرا تـضـمَّـنه هَـتُونٌ من الغفران مُـنـسكبُ الـغـمام
وبارك في الـبـنـيـنَ وفي بـنـيـهـم وبارك في الـبـنـات وفي الخيام
صـلاة اللـه يَحْـدوها سَـلامٌ على خير الـورى بَـدْرِ التَّـمَام

ونعتذر للقارئ أو المتابع عن فادح الاختصار إذ لم يمكنا الجهد والوقت من غير هذا وهو قليل من كثير في حق المترجم، إذ كل خصاله تستحق عدة مؤلفات لكننا على الأقل أثرنا الموضوع وللحديث بقية.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.